بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خطبة الشيخ أحمد الصبح

ذكرى المعلم والأم

الحمد لله، الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم، الحمد لله الذي أرسل مُحَمَّداً هادياً ومعلماً للخير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا مُحَمَّداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحابته الغر الميامين، وعلى التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله، وأحثكم وإياي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

يقول الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله –بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ– ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] ويقول جل من قائل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

أيها الإخوة الأحبة: تُعد الأعياد من الشعائر والدِّين، فقد قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: ((ما هذان اليومان؟)) قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: ((إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما، يوم الأضحى ويوم الفطر)).

إذا لا عيد للمسلمين إلا عيد الفطر وعيد الأضحى، وقد استحسن كثير من السلف والخلف الاحتفال بذكرى مولد الحبيب الأعظم مُحَمَّداً ﷺ تذكيرًا بهديه وتحفيزًا على الالتزام سنته.

وقد مر بنا الأمس واليوم مناسبتا يوم المعلم ويوم الأم، وقد شدد فئة من المسلمين النَّكير على مَن يحتفل أو يُذكّر بمثل هذه الأيام، على أساس ألا عيد للمسلمين إلا الفطر والأضحى، ونخرج من هذا الخلاف بأن نقول بأن هذه المناسبات وسواها لا تدخل في الحياة الدينية، وهي من العادات الدنيوية الطيبة، ولها صلة بأمر يُحبه الله عز وجل، ألا وهو البر والإحسان.

وبناءً على ما سبق، ولم أشأ أن أبسط القول في هذه القضية العلمية الفقهية، لكن يكفينا النتيجة منها، فإنه لا غرو ولا بأس من إدخال السرور على قلب الأم وعلى قلب المعلم، بكلمةٍ طيبة، أو هديةٍ معبرة، أو قُبلةٍ تُطبع على جبينهما، أو عِرفان لجميلهما.

أيها المسلمون: جَلست الأمس متأملاً في اقتران هذين اليومين معاً، أقصد يوم المعلم ويوم الأم، فالأمهات والمعلمون هُم شموع تُضيء للأمة طريق المجد والتقدم، هم شموعٌ تُمحى بها ظلمات الجهل والتخلف عن الأمة، الأمهات والمعلمون هم أخطر فئتين في المجتمع، لأن عقول ونفسيات أبناء الأمة بين أيديهم، يُشكلونها كما يرون، فإذا صلحت الأمهات وصلح المعلمون صلح المجتمع بأكمله، ويَفسد المجتمع ويتخلف بقدر ما يَفسدون.

لن أتحدث اليوم عن بر الوالدين كما جرت عادة الخطباء في مثل هذه المناسبة، لكنني سأتكلم عن قيمتين يَجمعهما المعلم والأم هما العلم والتربية، وبغير العلم والتربية لا تقوم حضارة ولا بناء، ولا تقوم للأمة بين الأمم قائمة، وسأقف في كلامي ثلاث وقفات:

الوقفة الأولى: في بيان مكانة المعلم، ولقد رفع الله من شأن المعلمين وأعلى من قدرهم قبل أن يُكرمهم البشر أو أن يَجعلوا لهم يوماً في السنة، أمر بتقديرهم طوال العمر، ولهم في الآخرة الأجر العظيم، يقول ربنا جل وعلا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١] والآيات في بيان فضل العلم وأهله كثيرة معلومة، وفي السنة يُخبرنا الحبيب الأعظم ﷺ مَن لا ينطق عن الهوى بأن الكون كله يَتفاعل مع معلمي الناس الخير، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)) ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ)).

الوقفة الثانية: أقول للمعلمين: بأنه بلا شك هناك نقص كبير في تقدير مكانة المعلم في المجتمع، حتى أصبحنا نَسمع الطلاب يتطاولون على أساتذتهم، ويُعينهم على ذلك مع الأسف عوامل كثيرة، لكن من بين أسباب ذلك ثلة من المعلمين أنفسهم، لم تُدرك عظمة مكانة ومسؤولية التي أسندت إليها، ففرطوا وكانوا قدوة سوء في أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم، بسبب هؤلاء الثُّلة سقطت هيبتهم من أعين الناس، ثم أخذ ذلك يَنسحب على بقية المعلمين، فكيف يَكون لأمثال هؤلاء مكانة عند طلابهم فضلاً عن عامة المجتمع، ومن أسباب ذلك أيضاً ضَعف التربية، وسوء الأدب من قبل البيت للأولاد، فتجد ذلك الأب أو تلك الأم الذي ما أن يَأتيه الابن شاكياً مِن مُعلمه إلا قام لنصرته نصرة جاهلية، وقد يتطاول وقد

يُهدد المعلم أمام الطالب مما يُسقط هيبة ذلك المدرس من عين الطالب، ورحم الله أياماً أدركتُ بعضها، كان يَقول الوالد لمعلم ولده: (لكم اللحم ولنا العظم).

كان الكِسائيُّ يُعلم ابني الخليفة هارون الرشيد الأمين والمأمون، ونَهَضَ يوماً لِيْنصَرِفَ، فرَكَضَ تلميذاهُ الأميرانِ: الأمينُ والمأمونُ إلى حِذائه، وأَمسكَ كُلُّ أميرٍ بفَرْدَةٍ حذاءِ، وهو يُشَاجرُ الآخر على الفَرْدَةِ الأخرى، لِتَقديمِ الحذاء إلى الأستاذِ، ثُمَّ اتفَقَ الأميرانِ أنْ يُقَدِّمَ كلُّ أميرٍ فَرْدَةً لمعلمه،

في اليومِ التالي سألَ الخليفةُ هارونُ الرشيدِ مُعَلِّمَ وَلَدْيهِ، هارون الرشيد هذا الذي نَتغنى به في نشيدنا الوطني: فمنا الوليد ومنا الرشيد، ثم نتساءل: فلم لا نسود ولا نشيد؟ أتدرون لم لا نسود؟ لأننا لا نَلتزم بأخلاق الوليد، لأننا لا نلتزم بقيم الوليد، سألَ الخليفةُ هارونُ الرشيدِ مُعَلِّمَ وَلَدْيهِ: مَنْ أعزُّ النّاسِ أيها العالم؟ أجابَ الكسائيُّ: أنتَ يا أميرَ المؤمنين. قالَ الرشيدُ: بلْ أعزُّ الناسِ مَنْ يَتَسابقُ ولدا أميرِ المؤمنينَ لتقديمِ الحذاءِ له.

الوقفة الثالثة: في عِظم المسؤولية الملقاة على عاتق كلٍ من الأم والمعلم، وقف شوقي يوماً يقول :

الأمُ مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق

وهو ذاته القائل عن المعلم:

أرأيت أعظم أو أجلّ من الذي يبني وينشئ أنفساً وعقولاً

فأين تلك الأم –أيها الأحبة– التي أُعدّت حق الإعداد لتربي شعباً طيب الأعراق؟ وأين ذلك المعلم الذي يَحمل أمانة إنشاء الأنفس والعقول كما يُحب الله ويرضى؟.

سؤال نسأله: هل اختار الزوج أماً كهذه كما أمر الحبيب مُحَمَّد ﷺ ((فاظفر بذات الدين تربت يداك)) أم أنه اختارها لحسن وجمال، لقوام ممشوق وقدٍّ مرموق، لصداقة أو حب أو هوى.

كل زواج –أيها الأحبة– لم يراعَ فيه شروط الاختيار هو مَصنعٌ بغير مواصفات، هُو بناء من غير تنظيم، هو سير على غير هدى، ويَظن أبناؤنا وإخواننا المقبلون على الزواج جَهلاً مِنهم بأن ما يُسمونه الحب ما

يُسمونه الجمال كفيلٌ بقيام علاقة زوجية ناجحة سعيدة، يتصورون أن الحياة بناء على ذلك ستكون شهر عسل، ولم يَعلموا أن بَهجة الجمال وغنجة الدلال تَزول بعد أيام أو أسابيع، ويَبقى جمال الخلق والدين، أو قُبح الطبع وسوء الطباع، لذلك لا تَستغربوا إن كثرت حالات الطلاق بين العشاق، لأنها لم تقم على أساس متين، وإن استمر هذا الزواج لا تَستغربوا –أيها الأحبة– إن نشأ جيل خال من الأخلاق والقيم والدين، ببساطة لأن الأم لم يتم اختيارها ولم تُعد كما ينبغي.

وعلى صعيد المعلم: هل تَم إعداده لِيُنشئ جيلاً من العلماء والمثقفين وحملة القيم؟ أم إن كثيراً مِن المعلمين امتهن هذه المهمة لأنه لم يَجد سواها، ليكفي حاجته وحاجة عياله، ليطعم أولاده، الكثير منهم أغلق كتبه وفتح جيوبه، لا يَقرأ ولا يُحضّر ولا يَحترم عقول طلابه، لا يُطور نفسه ولا يُؤهل ذاته، يَبقى على حاله منذ تخرجه إلى أن يَتقاعد أو يموت.

المعلم الذي لا يُعطي الطالب حقه من التعليم والعناية والرعاية هو خائن للأمانة.

المعلم الذي يُحيج طالبه إلى أن يَستعينوا بمعلم خاص، أو دروس إضافية هو خائن للأمانة.

المعلم الذي يُسَمم عقول الطلاب، ولا يراعي أمانة التربية وسلامة الثقافة والعلم هو خائن للأمانة.

ولئن نشأ يوماً جيلٌ بلا قيم، فابحث عن فساد الأم وفساد المعلم.

أختم بهذه القصة: يُحكى أنه قُدم شاب لينفذ به حكم الإعدام على جريمة قتل ارتكبها، فقيل له: ماذا تتمنى قبل أن تموت؟ فقال: أريد أن أُوَدِّع أمي، فأوقفوه حتى أحضروا والدته، فرآها وبكى، ثم قال لها: أُمي أُريد أن أقبلك وأُودعك، فاحتضنها ثم قبل وجنتها، فأخذوه لِيُنفذوا الحكم، فقال: أُريد أن أقبل لسان والدتي ليكون آخر عهدي بالحياة، فاسمحوا لي، فسمحوا له، فلما وضع فمه على لسانها أَطبق أسنانه على لسانها فقطع لسانها، فقيل له: لم فعلت هذا، قال: إن هذا اللسان هو السبب في وقوفي هذا الموقف، لِيُنَفَّذَ بي الحكم، جئت مرة إلى والدتي فقلت لها: قد سرقت بيضة. فقالت: أحسنت، ثم سرق دجاجة، ثم سرق وسرق، حتى اضطر أن يَقتل من أجل أن يسرق، ووقف لِيُعدَم على أعماله، الأم هنا – أيها الأحبة– هي الشريك الأكبر في هذه الجريمة، فقد كُنت منذ الصغر أَتصرف أمامها تَصرفات خاطئة فلم توجهني أو تحسن تربيتي، حتى تعلمت ارتكاب الجرائم، وصدر بي الحكم، فأحببت أن أعاقبها قبل موتي، وأردت أن تَعتبر الأمهات، فلا تشغلهن عاطفتهن عن حسن تربية أبنائهن.

العلم والتربية –أيها الأحبة– أمانة، وسنسأل يومًا عنها يوم القيامة، قال حبيبكم مُحَمَّد ﷺ: ((إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ ذلك أو ضيعه)) أو كما قال ﷺ، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فيا فوز المستغفرين استغفروا الله.